أربع محاضرات في مقياس :

تاريخ الحضارة الإنسانية

السنة الأولى ليسانس . الجذع المشترك

السداسي الثاني

إعداد:

د/ عبد العزيز لعيادي

قسم اللغة والأدب العربي

كلية الآداب واللغات

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

االسنة الدراسية: 2020/2019

المحاضرة الأولى:

مدخل مفهومي للحضارة

تمهيد:

يقول ول ديورانت (Well Durant) في مقدمة سفره الضخم قصّة الحضارة :"إنّ الحضارة ظاهرة عامّة تخُصّ كلّ المجموعات البشرية في أزمنتهم و بيئاتهم و أشكال وجودهم المختلفة، فلا تتوقف الحضارة أو المدنية على جنس دون جنس، فقد تظهر في هذه القارّة أو تلك، وقد تنشأ عن هذا اللون من البشرة أو ذاك، قد تظهر المدنية في بكين أو دلهي، في ممفيس أو بابل، في رافنا أو لندن، في بيرو أو يوقطان، فليس الجنس العظيم هو الذي يصنع المدينة، بل المدنية العظيمة هي التي تخلق الشعب لأن الظروف الاقتصادية و الجغرافية هي التي تخلق ثقافته، والثقافة تخلق النمط الذي يصاغ عليه..".

و تبعا لذلك فإنّ التّحضر هو وضع من الاجتماع الإنساني ذو مواصفات خاصّة في علاقة أفراد المجتمع بالأرض التي يعيشون فيها، وعلاقة هؤلاء الأفراد ببعضهم ، بحيث تثمر هذه العلاقات كلها نمطا من الحياة تنمو فيه المكتسبات المادّيّة و المعنويّة، متلوِّنة بألوان مختلفة من حضارة لأخرى، و كما يعيش النّاس وضعا من التحضّر؛ فإنّهم يعيشون أيضا أوضاعا أخرى لا تحضّر فيها، بل هي قائمة على التشتت في العلاقة بين الافراد، و في العلاقة بينهم و بين الأرض؛ فلا يكون استقرار يفضي الى كسوب مادّيّة و معنويّة، و انّما هي بداوة و ترحال و توحش، يحافظ فيه الناس على الحد الأدنى الذي يحفظ الحياة.

يمكن القول في هذا السياق أن الحضارة ظاهرة عامّة رافقت الإنسان في تاريخه الطويل . منذ العصر الحجري إلى العصر النووي، فقد كان الانسان يصنع حضاراته، في كلّ مرّة يعيد فيها صياغة نفسه بما يتلاءم وحاجيّاته المتجدِّدة والمتطورة، بحيث تعبر الحضارة عن خاصية الانسان في سعيه الدّؤوب لتجاوز الواقع و رفض ما هو كائن بهدف الوصول إلى ما هو أفضل...

لذلك كانت الحضارة في كل مرة تشير إلى مفصل هام من مفاصل التاريخ البشري، أي إلى واقع التعددية التي عبّر الانسان بواسطتها عن انتقاله الدائم من حالة لأخرى في سياق تاريخ متواصل و متوتّر. ففي

حين يرجع الانسان في كل زمان و مكان إلى أصل واحد، توالدت منه البشرية جمعاء، فإنّ أفعال الانسان ترجع الى مصادر و عوامل مختلفة؛ لا تلغي واحديّة الأصل و تعدُّديّة الممارسات ، بقدر ما تكشف في الكائن البشري عن طاقات و ردود أفعال غير متجانسة اتجاه الواقع و الطبيعة.

و بينما يشترك جميع البشر في الانتماء الى طبيعة نوعيّة آدميّة واحدة ،إلّا انّهم يختلفون في أنماط وجودهم وفقا لتجاربهم الخاصّة، ذلك أنّ دوافع التجربة و اشكالها و آليّاتها ترتبط بمجموعة خاصّة من العوامل النفسية و المجتمعيّة و الطّبيعيّة و الاقتصادية و الفكريّة ، و تندرج مجتمعة في سياق تاريخي محدّد وخاص تتبلور خلاله، و في اعقابه أفعال و انفعالات جماعة بشرية معينة في مواجهة هذه الدوافع والعوامل. وما يترتب عن ذلك كله من صياغة لنمط و جوديّ خاص بهذه الجماعة، و هو النمط الذي يجسد نمط إدارة هذه الجماعة ز و طريقة تعاملها مع هذه الدوافع و العوامل ،و ما تسفر عنه من نتائج تتأصّل وتتشكّل لتأخذ صورة" الهويّة " حيث تتأسس قاعدة التمايز و الاختلاف ،بين الجماعات البشرية ،انطلاقا من مبدأ التمايز و الاختلاف في كيفية التفاعل مع العوامل و الدوافع المذكورة...

و يتأكّد ذلك بالنظر الى مدى التنوع و التعدد في صور ونماذج الحضارات التي انتجها الكائن البشري منذ البدايات الى اليوم. فالحضارات التي اندثرت تاركة لغيرها اشعاعات مضيئة من اجل التقدم الذاتي او التفاعل الخارجي ، و الحضارات التي تعايشت في زمن متقارب، و تعرفت على ذواتها في ضروب الصراع و التنافس و التفاعل و التبادل و الاقتباس ، انما تؤكد واقع الوجود الخاص و المتعدد للحضارة في كل زمان و مكان، و بالتالي فلا نجد ان ثمة حاجة لدحض وجهة النظر القائلة هي احتكار للإبداع ، يتميز به شعب خاص او امة خاصة ، نافيا بذلك عن غيره من الشعوب إمكانية إقامة حضارة، عدا وجودها الملموس. ذلك ان وجهة النظر هذه تنطلق من واقع المقارنة و ليس من الواقع التاريخي، وتسقط صورتها بما هي . بطبيعة الحال الصورة الأكثر تقدما على الآخرين

كما ان تبريراتها لا تعود الى الخاصّيّة الحضاريّة وحدها، بقدر ما تعود الى جملة من المصالح و السياسات ، التي تملي عليها القول بحصرية الحضارة في شعب او عرق او امة او عقيدة ، و بنفيها عن شعوب اواعراق او أمم او عقائد أخرى ...

إن الحضارة على اختلاف الوانها محكومة بعوامل و سنن عامة ، سواء في حدوثها أساسا ، او تطورها و نماءها ، او في توقفها و انحلالها. و هذه العوامل و السنن قد تختلف في المحتوى التفصيلي الذي يلون الحضارات بالوان مختلفة ، و لكنها تلتقي متوحدة في عناوينها العامة بحيث لا يكون نشوء الحضارة ولا نماء و تطور فيها الا بفعل تلك العناوين العامة ، و كذلك الامر بالنسبة لارتكاس الحضارة و ذهابها...

في النقاط الاتية نحاول وضع معالم مفاهيمية للحضارة في ضوء مدلولها .كمفهوم . و عوامل نشوئها وقيامها ،و كيفية تداعيها وأفولها ...

مفهوم الحضارة والتحضر:

الكلام عن الحضارة او التحضر يتشعب في كتب التاريخ و الفلسفة و الادب و السياسة و الجغرافيا والعلوم...اذ احصى عالما الانثروبولوجيا (علم الانسان) "الفريد كوبر" و "كلايد كلو كوهون" عام 1952 ما يزيد عن مائة و أربعة و ستين تعريفا للحضارة في اللغات العالمية .و قد اختلف الباحثون

تبعا لمدارسهم الاجتماعية و التاريخية في تحديد معنى الحضارة و المدنية و الثقافة فهم قد يجمعون بينها و قد يفرقون ، فبعضهم يعطيها معنى شموليا كليا، يشمل نشاطات الانسان كافة،و بعضهم يحصرون المضمون الحضاري بمعنى الثقافة ، و يستعمل المدنية بمعنى الحضارة التي تمثل الجانب المادي وحده، أي يذهبون الى ان الحضارة مرادفة للمدنية ، و الثقافة تمثل الجانب الفكري و النشاط الإنساني و الذوق الفني . و الحضارة بشكل عام تشمل محصلة النشاط الإنساني ، و مظاهرها تشمل النظام السياسي والاقتصادي و الاجتماعي و الديني و الفكري و العلمي و الفني و الادبي و غير ذلك...

و حتى يتضح لنا مفهوم الحضارة و التحضر ، فلا بد من بيان مدلوله اللغوي، ثم الاصطلاحي، و بيان مقياسه القيمي الذي يحكمه...

1/المدلول اللغوي:

الحضارة في مدلولها اللغوي تعني الإقامة في الحضر ، أي في المدن و القرى ، فكلمة "الحضارة" مشتقة من "التحضر"، و انما سميت الإقامة في المدن حضارة لان فيها يكون الحضور المستمرّ، فطبيعة حياتها الاستقرار ، و ذلك في مقابل حياة البادية التي طبيعتها التنقل و الارتحال ، تتبعا لمواطن الماء والكلأ..

و تطلق "حضارة" على " مدنية " و التي هي مشتقة من مدِّن المدائن ، أي حضّرها و بناها، و نحتو منها فعل التمدن، و جعلو معناه :"تخلق باخلاق المدن، و خرج من حالة البداوة، و دخل في حالة الحضارة".

2/المدلول الاصطلاحي:

من معنى الحضارة اللغوي نشأ مدلولها الاصطلاحي قائما على ما تثمره حياة الاستقرار في الحضر من كسوب مادية و معنوية ينجزها الانسان الذي تستقر حياته، و لا تتأتّى لمن يكون في حال بداوة وترحال...من علوم و آداب و فنون و نظم و عمارة.فأطلقت إذن الحضارة اصطلاحا على "الاثار والنتائج التي تنشأ من الحضارة" ، لغة "و هي حالة الحضور و الاستقرار".و ذلك معهود في لسان

العرب ، فكثيرا ما يطلق اللفظ مجازا و اصطلاحا على ما هو نتيجة او سبب او ملازم لما وضع له حقيقة.

لقد أشار" ابن خلدون " في تعريفه للحضارة الى هذا الارتباط بين استقرار الحياة و بين المنجزات الناشئة عنه، فعرفها بانها "نمط من الحياة المستقرة ينشئ القرى و الامصار ،و يضفي على حياة أصحابه فنونا منتظمة من العيش و العمل و الاجتماع و العلم و الصناعة و إدارة شؤون الحكم و ترتيب وسائل الراحة و أسباب الرفاهية"

و في موطن آخر من مقدمته يركز ابن خلدون في تعريفه للحضارة على ثمار الاستقرار فيقول"الحضارة هي التفنن في الترف و استجادة احواله و الكلف بالصنائع التي تؤنّق من اصنافه و سائر فنونه".

أما "ول ديورانت " فقد عرف الحضارة بأنها نظام اجتماعي يعين الانسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي ، و انما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، و النظم السياسية، و التقاليد الخلقية ،ومتابعة العلوم و الفنون".

و هذا التعريف يشبه تعريف ابن خلدون في ربطه بين بين وضع الحياة المستقرة و بين نتائجه من المكتسبات الناشئة عنه ، و لكن كأنما بدأ مفهوم الحضارة يستقر في الاذهان على انه المنجزات المادية و المعنوية مع تناسي مفهوم الحضر او الاستقرار الذي هو شرط لها و ذلك ما هو شائع اليوم ، كما عبر لها احد الباحثين بقوله:" الحضارة بمفهومها العام هي ثمرة كل جهد يقوم به الانسان لتحسين ظروف حياته، سواء كان الجهد المبذول مقصودا او غير مقصود، و سواء كانت الثمرة مادية او معنوية".

و لا يخفى ان من الثمار المعنوية للجهد الذي يبذله الانسان لتحسين ظروف حياته ما يتوصل اليه من نظم و قواعد اجتماعية تحفظ استقرار الحياة و تؤكده فيبقى اذن معنى الاستقرار مضمنا في تعريف الحضارة بالمعنى ، حتى و ان وقع التغافل عنه في اللفظ فيكون معنى الحضارة مشتملا على الحياة المستقرة للإنسان و ما تثمره من منجزات مادية و معنوية لتحسين تلك الحياة و تأكيدها تنميتها.

و اذا كانت كل هذه التعريفات تركز على ثمرة الحضارة فان بعض المفكرين نحوا منحى اخر ، اعمق وادق حينما ركزوا في تعريفهم على العناصر و المكونات الرئيسية لها فقالوا: "الحضارة هي ثمرة التفاعل

بين الانسان و الزمن و التراب "، و هو تعريف مالك بن نبي، أو "هي ثمرة التفاعل بين الانسان والكون والحياة " و هو اختيار محمد سعيد رمضان البوطي...

وعلى أساس هذا التعريف ، فالحضارة ليست أكثر من ثمرات الجهد الذي بذله الانسان لاستغلال المكونات التي من حوله، في سبيل تحقيق مقومات المجتمع الإنساني و بث أسباب الخير و السعادة فيه.

3/المقياس القيمي للحضارة :

اذا كانت الحضارة ثمرة تفاعل الانسان مع محيطه في اطار زمني ما، و اذا كانت هذه الثمرة تعني حياة مستقرة منتجة لمنجزات مادية و معنوية، فما هو مقياسه القيمي (او المعيار الأخلاقي) الذي يحكم بالخيرية و الصلاح فيه ، أو بعكس ذلك من البشر و الفساد؟

ربما كان المعنى القيمي للحضارة السائد اليوم بين الناس هو ان تحضر شعبا ما او فئة ما او شخص ما يعني درجة من الرقي و الصلاح ، و اذا ذكرت الحضارة في التاريخ و نسبت لامة من الأمم عنت وصفا قيميا يتضمن الرفعة و الخير..و كانه أينما كانت الحضارة كان الخير و الصلاح لاهلها و للإنسانية جميعا،و حيثما انعدمت ساد الشر و الفساد ؟

ان هذا المعنى الذي غلب تأتّى من غلبة الحضارة المعاصرة التي روج لها أصحابها بوصفها "نموذج الصلاح و الخير " للناس ، و تأتي من وقوع الشعوب المتخلفة في حالة الافتتان بها و الانبهار بمنجزاتها ...ثم صار هذا المعنى ملاصقا للفظ "الحضارة" في مدلولها العام .

و الحقيقة ، فان الحضارة لا تحمل معنى قيميا بقدر ماهي "وصف موضوعي لحالة من الاجتماع البشري ، و هي حالة الاستقرار الذي يفضي الى المنجزات المادية و المعنوية ،و عليه فانه اذا كانت غاية الانسان في حياته هي ان يحقق السعادة متمثلة في الامن و الاطمئنان و يسر الحياة ، فان ذلك قد لا يتحقق بالحضارة بل قد تجلب له الحضارة نواقض كثيرة لذلك ...فهي بذلك"وصف موضوعي و ليس وصفا قيميا و معياريا ، ان القيمية في الحضارة تستمد من تحقيقها للامن و الخير و التعاون ، لا من مجرد ترقي منجزاته المادية . وهذا المعنى القيمي بدأ يستقر عند نقاد الحضارة الغربية من أهلها ، و هو ما ذهب اليه الفيلسوف الألماني اشفيتزر حينما بين في كتابه "فلسفة الحضارة" : " ان الحضارة هي التقدم الروحي

و المادي للافراد و الجماهير على سواء يجعلون ارادتهم موجهة للخير المادي و الروحي للكل و الافراد الذين يتكون منهم الكل ".

و بهذا الميزان الأخلاقي للحضارة جعل اشفيتسر يوجه نقدا شديدا للحضارة الغربية التي طغت فيها المادة على الاخلاق .

المحاضرة الثانية:

شروط قيام الحضارة(عوامل التحضر) والأفول الحضاري:

أولا/ شروط قيام الحضارة (عوامل التحضّر)

حصر المؤرخ الحضاري "ول ديورانت " شروط قيام حضارة ما في أربعة عوامل ، اثنان منها يعودان الى الطبيعة : العامل الجيولوجي و العامل الجغرافي، و اثنان يعو دان الى الانسان نفسه هما : العامل الاقتصادي و العامل النفسي المتمثل في الامن و الاخلاق ووحدة اللغة .

اما توينبي فقد لخصها في عامل واحد هو "التحدّي" الذي تتعرض له المجموعة البشرية من قبل الطبيعة او من قبل الانسان نفسه فتحصل ازاءه استجابة منها تكون بداية لحياة التحضر ،كما تكون عامل نمو و استمرار فيها.

و مثال على ذلك (الصحراء الكبرى) التي كانت سهولا خصبة ملأى بالاعشاب و المياه ، و بتغير الظروف المناخية سلك السكان طرقا ثلاثة استجابة لهذا التحدي :

1/ فبعضهم ظلوا مقيمين في الصحراء الكبرى و بدلو عاداتهم و نمط معيشتهم الى بدو رحل .

2/و آخرون انتقلو الى المناطق المدارية جنوبا حيث الغابات ، و حافظو على حياتهم البدائية.

3/و آخرون قبلوا التحدي ، فدخلوا المستنقعات و عملوا على تجفيفها و إعدادها للزراعة ، و أتوا بحضارات مختلفة كالحضارة المصرية القديمة ، الحضارة السومرية ، و كذلك حضارة الصين ...(توبيني مختصر دراسة التاريخ 86/1).

ويرى مالك ابن نبي ان عوامل الحضارة أربعة: الأفكار (وخاصة الدينية منها)، الانسان، التراب والزمان.

فالمقصود بالإنسان هو الفعالية الحضارية التي تتكون فيه، والتراب يمثل البيئة الجغرافية التي يعيش فيها، والزمن هو الاستثمار الفاعل للوقت، والفكرة هي العامل الأساسي في التفعيل الحضاري لهذه العناصر الثلاثة.

وإذا شئنا صياغة هذه الشروط او تلك العوامل التي ظهرت في آراء هؤلاء المفكرين بطريقة أخرى تبدو أكثر عموما وتجريدا، بحيث تصدق على ظاهرة الحضارة لأمكننا تحديد ثلاث عوامل أساسية، إذا اجتمعت أدت الى ظهور حضارة ما ونموها واستمرارها، وهي: فكرة عن الوجود والحياة، ودافع يجعل تلك الفكرة فاعلة في الواقع، وبيئة طبيعية تستجيب لإرادة التحضر.

1/عامل الفكرة:

ونعني بالفكرة التي هي شرط أساس في قيام الحضارة، "تلك الرؤية الشاملة في تفسير الوجود، وفي تقويم حياة الانسان، انتهاء بذلك الى تحديد غاية هذه الحياة، يسعى المجتمع الى تحقيقها ".

ومهما يكن من امر هذه الفكرة قوة وضعفا وسدادا وضلالا، فإنها تمثل العامل الأساسي في كل ظاهرة تحضر، بحيث لا تنشأ حضارة على غير أساس من فكرة. وهذا ما أكده مالك بن نبي في قوله:" إنّ حضارة ما هي نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ، ويبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج الأصلي لحضارته، انه يتجذر في محيط في محيط ثقافي أصلي يحدد سائر خصائصه التي تميزه عن الثقافات والحضارات الأخرى ".

وبهذا البيان يكون مالك بن نبي أوضح من توبيني بكثير في اثبات ما للفكرة من اثر في انشاء الحضارة، اذ ان توبيني و ان كان يثبت للفكرة الدينة على الخصوص دورا في تأسيس الحضارة، الا ان نظريته العامة في قيام الحضارات على قاعدة التحدي و الاستجابة تعطي انطباعا بان الحضارة تنشأ عن ردة فعل أكثر من انها تنشأ عن ردة فعل أكثر من انّها تنشأ عن فكرة مسبقة شاملة عن الكون و الوجود.

و الفكرة ليست عامل انشاء فقط، و انما هي أيضا عامل صياغة للبناء الحضاري في جميع جوانبه ، بحيث تضل بعد الانشاء الأول تكيف كل التداعيات الحضارية المادية و المعنوية بحسبها ، و ذلك ما يبدو جليا في الحضارة الإسلامية التي قامت على فكرة تمحيض الدّينونة الحياة الإنسانية كلها للاله

الواحد حيث جاءت هذه الحضارة مطبوعة بطابع التوحيد في علومها و فنونها و عمرانها المدني و قيمها الأخلاقية و الاجتماعية .

2/ عامل البيئة الطبيعية:

البيئة الطبيعية هي مسرح الحضارة، فعلى الأرض يكون استقرار الانسان ، و من مرافقها يرتفق لاستيفاء حاجاته ، و تنمية أساليب حياته. و بطبيعة المناخ الجغرافي يكون نشاطه محكوما انبساطا و انقباضا وعلى أساس الأرض و المناخ تتحدد حركته في الانتفاع بالتبدل الثقافي و الاقتصادي ممّا له اثر بالغ في قيام الحضارة.

و على هذا الاعتبار فإنّ حياة متحضرة للإنسان لا يمكن ان تنشأ او تنمو الا على مسرح بيئي مستجيب للاستعطاء في ارضه و مناخه .و كم هي الجماعات التي عاشت في بيئاتها دهرا طويلا متوفرة لها اهم عوامل التحضر ،و لكن فظاظة تلك البيئة أبقت عليها في حياة البداوة، و كذلك كم من حضارة ازدهرت في بيئة معطاة ثم انقرضت لتبدلات مناخية عاتية في تلك البيئة، و ذلك شأن مجموعات الاسكيمو في القطب الشمالي المتجمد كشاهد على الحالة الأولى ، وهو شان الانتهاء الحضاري في بابل و نينوى (التصحر) كشاهد على الحالة الثانية ، ولا تكون البيئة الطبيعية عامل تحضر الا حينما تتوفر على إمكانية الاستقرار و الاستثمار مع توفرها على قدر من الاستعصاء، فلا تنفسخ الا بجهد انساني يثمر من قبلها العطاء الذي يكون به التحضر.

وعليه فان البيئة الطبيعية تمثل عامل تحضر حينما تكون في الحد الوسط الذي يتحدى فيه الانسان الى نقطة التوتر و القدرة على الاستجابة و الفعل و الاعمار، و يتجاوز التكشف الكامل و الانغلاق الذي يستحيل معه ردة الفعل و الابداع، و لعل هذا احد المعاني في قوله تعالى: "و لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض و لكن ينزل بقدر ما يشاء انّه بعباده خبير بصير".. الشورى 27 .

3/ عامل الدافع الحضاري:

قد يتوفر مجتمع ما على تتضمن فيها عنصر القوة ، و تبنى على قدر كبير من الحق في شرح الوجود وتقدير الحياة، كما يتوفر أيضا على بيئة طبيعية في حدها الوسط بين الانكشاف و الانغلاق ، و لكن مع ذلك لا تتطور حياته الى التحضر، أو يخطو في الحضارة خطوات سرعان ما تنتكس الى بداوة أوما يشبهها ، و من شواهد ذلك ان الشعوب التي اعتنقت المسيحية رغم انتشار كثير منها في بيئات صالحة الا ان التحضر المسيحي لم ينشأ الا بعد المسيحية بألف عام في شمال أوروبا ،و كذلك فان الشعوب الإسلامية آلت بعد بضعة قرون من التحضر الى وضع من الجمود ، انتهى الى ما يشبه البداوة .

و تفسير ذلك ان للتحضر عاملا ثالثا بالغ الأهمية و هو الدافع الذي يدفع المجتمع الى البناء الحضاري و الاستمرار فيه ، وهو عامل يتكون في النفوس تكونا جماعيا ،تكون له قوة توحيد كما تكون له قوة استنفار، تهب بها المجموعة في خط مشترك للتعمير و التنمية استثمارا للبيئة الطبيعية و ترقية للكيان الإنساني الفردي و الجماعي.

و يمكن ان نفسر هذا العامل بانه عامل تفعيل للفكرة من جهة و للبيئة من جهة أخرى، بحيث تصير به الفكرة فاعلة في النفس، دافعة للعمل من اجل تحقيق تلك الغاية ،كما يصير به للطبيعة موقع في النفس يدفع الى اقحامها لمباشرة استثمارها و التعمير فيها ...و في حال عدم توفر هذا الدافع النفسي بقيت الفكرة في الاذهان لا قيمة واقعيّة لها ككثير من الأفكار الفلسفية المجردة، و بقيت البيئة الطبيعية مسرحا للوجود لا مسرحا للفعل و الاستثمار ،فتنتفي عندها الحضارة لانتفاء الدافع اليها.

و قد وصف مالك بن نبي هذا الدافع الحضاري ب" تسجيل الفكرة في الانفس " مرة ، و وصفه في الأخرى ب"الانطباع في النفوس" أي اشراق فاعلية الفكرة الدافعة للتعمير في النفس.

و حاول توبيني شرح هذا العامل من خلال نظريته في التحدي و الاستجابة بانه "استشعار الاخطار المهددة من الطبيعة او من الانسان استشعارا يدفع الى ردة فعل باثبات الذات الجماعية عبر حركة التحضر".

ان الفكرة حينما تحل في النفس حلولا ايمانيا، يكون حلولها الايماني ذلك هو الدافع النفسي للعمل الحضاري ، و الحلول الايماني للفكرة انما هو ذلك الوضع الذي تكتسبه في النفس، بالغا فيها من العمق درجة تصبح بها مسيطرة على كل الكيان الإنساني، فتوجه قدرات ذلك الكيان توجيها موحدا نحو العمل الانجازي لتحقيقها في الواقع، و كذلك فان البيئة الطبيعية حينما تحل في النفس محل الأداة المسخرة من أجل تنفيذ الفكرة فانها تكون عامل جذب و ترغيب لاستثمارها و التعمير فيها ، و لعلّ اشدّ ما يكسب الفكرة الدرجة الايمانية في النفس هو الدين ، حيث تستشعر النفوس استشعارا جماعيا قداسة المصدر الذي املى الفكرة، فتوجه كل القوى الانسان في مرضاة ذلك المصدر في تحقيق ما حدد من غاية للحياة و كذلك بالنسبة لمنزلة الطبيعة من نفس و هذا ما حد بكثير من مؤرخي الحضارة باعتبار العامل الديني العامل الأساسي في تفعيل الفكرة و دفعها الى الإنجاز الحضاري.

ثالثا/أفول الحضارة و دواعي التحضّر:

يقول وول ديورانت :"المدنية ليست شيئا مجبولا في فطرة الانسان، كلا و لا هي شيء يستعصي على الفناء انما هي شيء لا بد ان يكتسبه كل جيل من الأجيال اكتسابا جديدا"

فلما كانت الحضارة وضعا إنسانيا مكتسبا وفق العوامل و الأسباب ، فانها بذلك تحمل في ذاتها إمكانية تصدعها و تلاشيها و افولها و الشاهد التاريخي قائم في هذا المعنى. اذ حفل تاريخ الانسان بحضارات كثيرة بلغ بعضها اوج العظمى ثم لفها الفناء، و بعض الحضارات تشهد الان أدوارها الأخيرة في الانحلال و البعض الآخر يشهد إرهاصات و نذر ببداية الانحدار نحو الافول.

و قد انقسم مؤرخو الحضارة الى قسمين في نظرتهم الى افول الحضارات و تداعيها ،قسم يرى حتمية سقوط الحضارة، بل يعده دورا لازما في حياة التحضر، و هو رأي ابن خلدون و اشبنجلر، فابن خلدون يوحي تحليله للمجتمع البشري بانه يتوجه هذه الوجهة الحتمية، و ان كانت وحدة الدراسة عنده الدولة

و ليست الحضارة الا ان مزج تحليله للعمر السياسي للدولة باحوال التحضر المادي و المعنوي يوحي بانه يميل الى القول بحتمية التداعي للحضارات كحتمية التداعي للدول.

و اما اشبنجلر فقد اقام فلسفته في الحضارة ، على ان الحضارات شانها في ذلك شان جميع القوى الطبيعية تتبع نمطا مشتركا من المولد و النمو و الانحدار و الموت.

و قسم آخر يرى أن مال كل حضارة انما هو مال مرتبط بالارادة الإنسانية ، أي يتوقف على كسب الانسان ، فاذا تعلقت هذه الإرادة باسباب الحضارة و عوامل اقامتها فانها قد تستمر باطراد دون ان تنتهي الى اضمحلال ...و هو رأي توبيني و مالك بن نبي فتوبيني يرى ان ليس ثمة من الأسباب ما يمنع من تسلسل الردود المفحمة على التحديات المثيرة الى مالا نهاية و اما مالك بن نبي فقد رسم دورة الحضارة ذات الثلاث مراحل : مرحلة الروح، مرحلة العقل و مرحلة الغريزة و قد سماها بالدورة الخالدة. الا انه لم يجعلها دورة حتمية المآل الى الزوال، بل انه حلل بها الحضارات الزائلة، و الا فان الحضارة يمكن ان تستمر في الفكرة الدينية تحيي فيها غائية معينة.

اذا كان منشأ الحضارة اراديا مكتسبا و ليس عن فطرة ، فانه من المعقول أن يكون تداعيها و استمرارها أمرا اراديا مكتسبا أيضا .وعليه فان مآل الحضارة الى الفناء انما هو من مكتسبات الانسان باكتساب أسبابها .و لو تعلقت إرادته بأسباب الاستمرار لما كان لحضارته زوال .

وعليه فقد اجتهد مؤرخو الحضارة في بحث أسباب التداعي أو الافول الحضاري ، وأسفر اجتهادهم عن جملة من الأسباب التي في معظمها ترجع الى اغلال تصيب تلك العوامل الثلاثة التي ذكرناها في شروط قيام الحضارة.

فالاسباب تعود الى عامل الفكرة تتمثل في انحراف الفكرة التي دفعت الى قيام التحضر .كأن يؤول تصور الوجود الى تصور وهمي خرافي ، او يؤول تصور الانسان و دوره في الحياة وغايته منها الئ مفاهيم تنزع منزع الاستنقاص للذات، او منزع للتشاؤم و الياس و العبثية . يقول شفستر :"كل تقدم انساني يتوقف على التقدم في نظريته في الكون ، و على العكس نجد ان كل انحلال سببه انحلال مماثل في نظريته في الكون " وعلى ذلك فانه " اذا انتج المفكرون في عصر من العصور نظرية في الكون ثمينة

، فان الأفكار تتداول بين الناس تداولا لا يؤدي الى ضمان التقدم ، وان عجزوا عن ذلك بدأ الانحلال يدب على نحو او اخر ، فكل نظرية في الكون تجر وراءها نتائجها التاريخية " (فلسفة الحضارة) .

و في القران الكريم آيات كثيرة تشير الى ان سقوط التحضر يكون بسبب من خلل في الفكرة تطرأ على المومنين بوحدانية الله و ما يتفرّع منها ، و لعل أجمع آيتين لهذا المعنى **قوله تعالى :" ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفراً و أحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها و بيس القرار ". إبراهيم 29 28 .**

و الأسباب التي تعود الى البيئة الجغرافية تتمثل في تغيرات بيئة أرضية و مناخية ذات صبغة انقلابية تخرج بها عن الحد الصالح الذي نشأت به الحضارة و تطورت و يكون ذلك في مظهرين :

الاوّل:

تحول مناطق الخصوبة الى مناطق صحراوية او جليدية

الثاني:

تحول البيئة الى حد من التكشف و الرخاء و العطاء المجاني ، الذي يكون مدعاة الى التراخي و ضعف روح التحدي و المجاهدة

و اما الأسباب التي تعود الى عامل الدافع الحضاري فلعلها من اهم الأسباب في افول الحضارة و تداعيها ، و اكثر انتشارا في سقوط الحضارات عبر التاريخ .

و بيانه ان يصيب اهل حضارة ما ارتخاء في الواقع الذي يدفعهم الى البناء الحضاري ، و فتور في إرادة الإنجاز اما على مستوى النفس الفردي او على مستوى الإرادة الجماعية، فاذا بالفرد يصيبه انحباس نفسي يقلص فعاليته الى حد كبير فاذا هو يجتر حياته دون مبادرة او ابتكار، و كأن الوقود الذي كان يحركه و يدفع به الى الامام قد نضب ، او هو على وشك النضوب و اذا بالجماعة تتقاطع مصالحها وتتعارض قواها فينعدم فيها التحفز الجماعي .

وقد حاول مالك بن نبي ان يشرح هذا العامل النفسي في التراجع الحضاري ، فبين ان الفكرة في حالة الانشاء للحضارة تجعل من الروح في كيان الانسان قوة مسيطرة على العقل و الغرائز، ثم يضعف الدفع

الروحي ليسود العقل ثم يزداد ضعفا من تلقاء ضعف التحمل للفكرة ، حتى تبرز الغرائز الفاعلة في توجيه الانسان و حينئذ يبدا التداعي الحضاري (شروط النهضة).

المحاضرة الثالثة:

ظاهرة التحضّر في التاريخ الإنساني

أولا / الإنسان و غريزة التحضر :

استطاع الإنسان البدائي بعقله مقاومة الطبيعة القاسية ، و أن يتغلّب عليها ، ويدافع عن بقائه بين المخلوقات المتنافسة على البقاء فيها . وقد ازدادت مقدرته وخبرته إلى حد كبير عندما أصبح أول المخلوقات ـ بل الوحيد من بينها ـ الذي تمكن من صنع الأدوات ، التي كان من أولها تحسين شكل الحصاة التي التقطها ، وجعلها أكثر ملاءمة للغرض الذي أراد أن يستعملها فيه ، حتى غدت قطعة الحجر هذه رمزا متميزا للعصر الحجري الذي كان قبل مائتي ألف سنة مضت .

وتقدّمت خبرة الإنسان في صناعة الأدوات والآلات ، التي كان لها أعمق الأثر في ارتقائه ، بعد تجربة بطيئة ومجهود طويل .

وهكذا كان العمل أول عامل من عوامل الحضارة: صناعة، ثم زراعة .. أي استقرار وأسرة وقبيلة، ثم نقل وتجارة وتبادل سلع...

كما نشأ نوع من تنظيم للحياة والمجتمع ، فقامت سلطة (حكومة) لحماية الإنسان من الأخطار والكوارث التي تحيط به .

تلا هذه الخطوة ظهور أعراف وقوانين و شرائع.. نظمت ما يجيش في الإنسان من شهوات ، وأخضعتها للطريق السوي ، فبغير القانون تنحل الجماعة أفرادا، وتسقط فريسة لمجتمع أو دولة أو سلطة أخرى ، يكون فيها التماسك الاجتماعي أمتن و أقوى يقول (ول ديورانت) : " ويندر أن يأتي الموت إلى المدنية من خارجها ، بل لابد للانحلال الداخلي أن يفُتّ في نسيج المجتمع أولا، قبل أن يتاح للمؤامرات أو الهجمات الخارجية أن تغيّر جوهر بنائها ، أو أن تقضي عليها قضاء أخيرا ".

وفي ظل هذه الدول والمجتمعات المستقرة ، ظهرت الأديان ، وتوحّدت العبادات في كل منها ، وأكثرها متشابه تمام التّشابه وإن اختلفت في جزئياتها . ونحن نرى أن الأديان كانت في أول أمرها نواميس سنّها الله عزّ وجلّ للإنسان بوساطة أنبيائه ، قال تعالى : { وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} فاطر 24 ، كي يعيش الإنسان بطمأنينة وحرية وهناء . ومن المعلوم أن العقائد الوثنية عرفت في كل المجتمعات القديمة، ولعل السب في ذلك هو أنه عندما يأتي النبي يتبعه قومه ، وبعد وفاته يُدخل الناس إلى تعاليمه بعض العقائد الوثنية ، التي كانت قبل مجيئه، وقد يقتبسون من بعض الديانات الوثنية الأخرى أشياء وتعاليم يحشرونها في دينهم ، لذلك لا تخلو عقائدهم من لمحات صحيحة وأفكار سليمة .

لقد عثر العلماء على مخلفات هذه الحياة البدائية في الكثير من أرجاء آسيا و إفريقيا و أوربا ، ولا يعرف أحد في أي مكان تمت جميع المراحل التي ساعدت على تكوين حضارة ... هذه العملية التي لم تكن متساوية ، أو على مستوى واحد في أمكنة مختلفة في العالم ، فمثلا استطاع كلّ من سكان مصر وبلاد الرافدين من اختراع الكتابة قبل أن يعرف غربي أوربا أي طريقة للكتابة بثلاثة آلاف سنة .

وكانت لمصر وبلاد الرافدين صلة تجارية بغيرهم من الأمم بواسطة السفن، في الوقت الذي كان فيه الأوربيون مازالوا يبنون مساكنهم مستعينين بأدوات من الحجر ، ولم يعرفوا أية وسيلة من وسائل الملاحة غيرا لزورق المنحوت من جذع الشجرة .

ثانيا / مهد الحضارة :

إذا كانت هذه هي بدايات التدرج الإنساني في سلم التحضر، والذي لا نعلم عنه إلا القليل ، فمن حقنا أن نتساءل: أيّ الحضارات العالمية أُنشئت أو ظهرت أوّلا ؟ و بصياغة أخرى أين كان مهد الحضارة الأولى ؟ هل هي المناطق القاحلة في آسيا الوسطى ، التي كانت في يوم من أيام التاريخ السحيق تتمتع بمناخ معتدل مطير،حيث عثر في(أناو) جنوب تركستان على خزف وآثار تدل على حضارة يعود تاريخها إلى 5000 سنة ق م ؟

يرى بعض المؤرخين ذلك ، ويذكرون أنه لما جفّت تلك المنطقة و أقفرت بمرور الزمن ، اندفع أهلها عبر ثلاث قنوات :

. شرقا: إلى منشوريه والصين وأمريكا الشمالية عبر مضيق (بيرنج Biring . الواقع بين آسيا وأمريكا.) .

. جنوبا : إلى شمالي الهند ، حيث عثر (جون مارشال) عام 1924 على الضفة الغربية من حوض نهر السند الأعلى . موقع : موهنجو، دارو . على مدينة بالغة الرقي ، قامت خلال الألف الرابعة والثالثة قبل الميلاد .

. غربا : إلى عيلام ، حيث عثر في عاصمتها سوزا (السوس، شوشان) على حضارة راقية يرجع عهدها إلى عام 4500 ق م ، حيث الزراعة واستئناس الحيوان ، وعرفوا كتابة مقدّسة ووثائق تجارية سجلت حركة تجارتهم التي امتدّت من الهند إلى مصر . كما عثر فيها على عجلة الخزّاف ، وعجلات المركبات ، ومزهريات رشيقة . وتشبه آثارسوزا آثار أناو ، مما جعل المؤرخين يفترضون أنه قد كان بينهما صلات حوالي 4000 ق م . وهناك شبه كهذا في الفنون و المنتجات القديمة بين بلاد ما بين النهرين ومصر ، يوحي بوجود علاقة كبيرة بينهما وارتباط يدل اتصال مجرى الحضارة .

ويرجح آخرون من علماء الآثار والتاريخ . مع تزايد المعرفة . أنّ دلتا الفرات ودجلة شهدت أول معالم الحضارة الإنسانية . وقرّر آخرون : أنّ مراحل الحضارة القديمة نشأت شرق البحر المتوسط في مصر وبلاد الرافدين .

ويمكننا القول بأن دلتاوات الأنهار الكبرى في بلاد الرافدين ومصر والهند والصين .. كانت مهد الحضارة ، علما أن فريقا من الباحثين في الحفريات و الأجناس من الأمريكيين و الفرنسيين العاملين في أثيوبيا توصلوا إلى اكتشاف بقايا إنسان (هيكل عظمي) ، يرجع تاريخها حسب تقديرهم وفقا لنشاط (الكربون 14 المشع) إلى أكثر من خمسة ملايين سنة .

ثالثا / وصف عام للحضارات العالمية في دائرة الدافع الحضاري (الفكري والنفسي) :

رأينا في المحاضرة الأولى ، أنه إذا توافرت فكرة ما للإنسان في حقبة زمنية معينة ، وفي بيئة جغرافية مواتية .. فإنه لا يستطيع أن ينشئ حضارة أو تحضرا إلاّ إذا كان هناك دافع نفسي ، عند تفاعله مع تلك الفكرة التي يؤمن بها ، يثمر إنجازات مادية وثقافية وقيميه معينة ؛ يمكن أن نسميها " حضارة " .

غير أن هذه الحضارة الناشئة تبقى محكومة في نموها واستمرارها بتلك الأسس الفكرية و النفسية لمنشئيها .. فعلى قدرما تكون أبعادها القيمية محققة لسعادة الفرد وتلاحم الجماعة ، وعلى قدر تمسك الأفراد بها وتفاعلهم الإيجابي معها ، تستمر هذه الحضارة مشعة معطاءة ... وكلما خفتت هذه الأسس الفكرية والنفسية بضعف سلطانها على النفس وقلة فاعليتها في الدفع نحو التحضر ، أو كلما كانت تلك الأسس بعيدة عن أن تثمر تلك السعادة وتلك الوحدة وذلك التلاحم في الفرد والجماعة .. عجزت هذه الحضارة أن تضمن نموّها واطّراد بقائها . وفيما يلي أمثلة توصيفية لبعض الحضارات العالمية على ضوء الدافع الحضاري، و فاعليته في إنشائها، وحيويته في ضمان بقائها ، أو أفولها : ...

1/ الحضارة الإغريقية :

كانت الأسس الفكرية عند اليونان الإغريق قائمة على تمجيد العقل . ولذلك كانت مظاهر حضارتهم ذات صلة وثيقة بهذه الأسس ، إذ أثمرت لهم خلال قرون علوما فلسفية و رياضية ونفسية وطبية و فنونا جمالية مختلفة . ولما كانت أسسهم الفكرية غير شاملة لحاجات الحياة كلها ، لم تستطع حضارتهم أن تعطي الصورة المثلى للحضارة الإنسانية الجديرة بالبقاء، لذلك زالت ولم تعمر طويلا .

2/ الحضارة الرومانية :

وكانت الأسس الفكرية عند الرومان قائمة على تمجيد القوة و الرغبة في بسط النفوذ والسلطان الروماني على الشعوب .. لذلك كانت مظاهر حضارتهم ذات صلة وثيقة بهذه الأسس ، إذ أثمرت لهم خلال قرون إعداد أجساد قوية ، وجيوش متقنة البناء حسنة الاستعدادات والتدريبات الحربية ، وأورثتهم هذه القوة سلطانا ممتدا في الأرض على شعوب كثيرة ، غلبوها واستعمروها ، واستغلوا خيراتها ، كما أثمرت لهم أيضا اشتراع مجموعة من القوانين والتنظيمات المدنية والعسكرية . ولما كانت أسسهم الفكرية والنفسية غير شاملة لحاجات الحياة كلها لم تستطع حضارتهم أن تعطي الصورة المثلى للحضارة الإنسانية الجديرة بالبقاء، لذلك زالت ولم تعمر طويلا .

3/ الحضارة الفارسية :

وكانت الأسس الفكرية عند الفرس قائمة على تمجيد اللّذة الجسدية والسلطان والقوة الحربية ، ولذلك كانت مظاهر حضارتهم ذات صلة وثيقة بهذه الأسس ، إذ أثمرت لهم خلال قرون قصورا فخمة ، ومجالات كثيرة للترف المفرط، وجيوشا حربية ذات بأس ، بسطت سلطانهم على شعوب كثيرة ، غلبوها واستعمروها ، واستغلوا خيراتها . ولما كانت أسسهم الفكرية و النفسية غير شاملة لحاجات الحياة كلها لم تستطع حضارتهم أن تعطي الصورة المثلى للحضارة الإنسانية الجديرة بالبقاء، لذلك زالت ولم تعمر طويلا .

4/ الحضارة الهندية:

وكانت الأسس الفكرية عند الهنود قائمة على تمجيد القوى الروحية وتنميتها بقهر مطالب الجسد وكبت غرائزه، ولذلك كانت مظاهر حضارتهم ذات صلة وثيقة بهذه الأسس ، إذ أثمرت لهم خلال قرون مجموعة كبيرة من التعاليم الروحية التي أخذت بتطاول الأمد صبغة ملل ونحل وديانات ، ووجّهتهم للتعلق بالعلوم الروحانية كالسحر وفنون الحيلة الخادعة للحواس ، التي تعتمد على التلاعب بها ، والتأثير على النفوس من ورائها. ومنحتهم مهارات مختلفة في التأثير على الأحياء الشرسة ، فكثر فيهم حواة الثعابين والحيات والعقارب ، ونحو ذلك من الهوام السامة . ولما كانت أسسهم الفكرية و النفسية غير شاملة لحاجات الحياة كلها لم تستطع حضارتهم أن تعطي الصورة المثلى للحضارة الإنسانية الجديرة بالبقاء، لذلك زالت ولم تعمر طويلا .

5/ الحضارة الحديثة :

أما حضارة القرون الحديثة التي بدأت منذ أواخر القرن الثامن عشر للميلاد ، واستمرت في نموها المادي تمتد و تنتشر من مهدها في أوربا إلى كثير من بلاد العالم ، فأسسها قائمة على تمجيد العلوم المادية ، والاستفادة من جميع الطاقات الكونية الكامنة والظاهرة لخدمة الجسد ، ومنحه وافر الرفاهية والمتعة واللذة ، واختصار الزمن له ، وتقريب المسافات ، وتخفيف الجهد عنه ، ودفع الآلام الجسدية .. وقائمة أيضا على الرغبة ببسط السلطان على الشعوب واستغلال خيراتها، وإعداد القوة الكفيلة بتحقيق ذلك بدءا واستمرارا . ولذلك نلاحظ أن مظاهر هذه الحضارة الحديثة ذات صلة وثيقة بهذه الأسس ، إذ أثمرت لإنسان هذه القرون الحديثة ولمن يأتي من بعده مجموعة كبيرة جدا من العلوم المادية المتطورة المتقدمة ، ومجموعة ضخمة من المبتكرات والمخترعات التي أفادت الإنسان في مختلف مطالبه المادية السلمية والحربية، ومجموعة ضخمة من النّظم والتشريعات الوضعية ، التي ساهمت في تنظيم علاقات الناس أفرادا وجماعات وأمما وشعوبا ودولا ، كما أثمرت ذخائر كبيرة جدا من القوى الحربية الدفاعية والهجومية .

والباحث المنصف يلحظ في هذه الحضارة الحديثة أنّ أسسها الفكرية غير شاملة لحاجات الحياة كلها ، وذلك لإهمالها جوانب مهمة من حياة الإنسان النفسية والروحية والخلقية والسلوكية ، ولاستهانتها بالجوانب الفكرية العليا المتّصلة بمنشأ الإنسان ومعاده والغاية من وجوده .

وعليه فإنّ هذه الحضارة لن تستطيع أن تعطي الصورة المثلى للحضارة الإنسانية الراقية ، وربما يكون تقدّمها الباهر في وسائل الرفاهية وعتاد القوة سببا من أسباب دمارها المذهل ، الذي بات وشيكا من خلال ملامحه في الأزمة المالية الحادة التي تمر بها الدول الاقتصادية الكبرى اليوم .

6/ الحضارة الإسلامية :

وأما الحضارة الإسلامية فهي الحضارة الوحيدة التي تشتمل أسسها الفكرية والنفسية على حاجات الحياة كلها ، من مختلف جوانبها الفكرية والروحية والنفسية والجسدية والمادية ؛ الفردية والجماعية ، ومن جميع المجالات العلمية والعملية . لذلك فهي جديرة بأن تمنح الأمم التي تلتزم بها وتسير على منهجها سيرا قويما الصورة المثلى للحضارة الإنسانية الراقية.

وقد استطاعت أسس هذه الحضارة ووسائلها ومناهجها أن تدفع الأمة الإسلامية في حقبة من الزمن للارتقاء في سلم الحضارة المجيدة المثلى ، على مقدار التزامهم بأسسها و وسائلها ومنهاجها السديد، وكانت نسبة الارتقاء الذي أحرزته هذه الأمة نسبة مدهشة إذا قيست بالزمن والطاقات التي تيسرت لهم حينئذ ، واستمروا في ارتقائهم المدهش حتى أدركهم الوهن والانحراف عن أسس الحضارة الإسلامية الصحيحة ، ووسائلها الفعالة ومنهجها السديد . ويظل ارتقاء قمم الحضارة المثلى أبد الدهر رهنا بالتزام أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها ومنهجها .

المحاضرة الرابعة:

الحضارات القديمة :حضارة الهند

قامت حضارة الهند القديمة على ضفاف أنهارها ،كوادي السند وروافده ، حيث مقاطعة البنجاب ، وعلى ضفاف نهرا لغانج وروافده ، وعلى ضفاف نهر كرشنا في الدّكن . وأقدم حضارة عرفتها الهند قبل قدوم الآريين ،كانت على الضفة الغربية من وادي السند ، والتي اكتشفها (جون مارشال) عام 1924 م ،وترجع إلى مابين الألف الرابعة والثالثة قبل الميلاد ، حيث الآبار والحمامات والنظام الدقيق للصرف في كثير من المنازل ،كالتي كانت في سومر و بابل و مصر ، مع نموذج نحاسي لعربة ذات عجلتين ، قال ديورانت : " هي أقدم ما لدينا من أمثلة للعربة ذات العجلات ". فهل استمدت هذه الحضارة أصولها من سومر ؟ أو استمدّت سومر أصولها منها ؟ أو الاثنتان جاءتا من أصل واحد؟.. لا إجابة، ولكن الثابت أن هذه الحضارة كانت على اتصال مع سومر وبابل .

كما قامت في هرابا(Harappa) . في البنجاب . حضارة ترجع إلى 2500 ق م .

لقد سكن الهند قبل هجرة الآريين إليها الدارفيديون (Dravidions) ، وهم شعب دخلها قبل فجر التاريخ ، لا يعرف أصله ، ثم جاء الآريون من الشمال ، والشمال الغربي بين عامي2000 و 1500 ق م ، واحتلوا سهل الغانج ، وأرجح النظريات أن موطنهم الأصلي أواسط آسية شمالي بحر قزوين ، منهم من هاجر جنوبا ، ومنهم من دخل أوربا ، فهم شعوب هندو. أوربية.

. حضارة الهند القديمة في عصر الفيدا (2000.1000ق م):

أقدم عصور حضارة للآريين في الهند هي عصر الفيدا (Vida) ، والفيدا مجموعة أغنيات استقيت منها المعلومات عن الهنود الآريين ، وهي أقدم أثر أدبي في أي لغة هندية . أوربية في الشرق والغرب . والفيدا تعني المعرفة، وهي المعرفة لكسب رضا الخالق، وبقي منها أربعة أسفار :

الريغفيدا : أوفيا الأناشيد .

والسامافيدا : وهو فيدا النغمات والتراتيل عند شرب السوما .

والياجورفيدا : وهو فيدا القرابين .

وأتارفا فيدا : وهو فيدا الرقى السحرية .

ويعتقد الهنود أن الإله الأعظم (براهما) كتبها بيده ، ويقولون أقدمها يعود إلى 6000 ق م .

جاء في الريغفيدا ترنيمة الخلق منها :

" لم يكن في الوجود موجود ولا عدم ، فتلك السماء الوضاءة لم تكن هناك ، كلا ، ولا كانت بردة السماء منشورة في الأعالي ، فماذا كان لكل شيء غطاء؟ ماذا كان موئلا؟ ماذا كان مخبأ؟ أكانت هي المياه بهوتها التي ليس لها قرار؟ ولم يكن ثمة موت ، ومع ذلك فلم يكن هناك ما يوصف بالخلود ، ولم يكن فاصل بين النهار والليل و(الواحد الأحد) لم يكن هناك سواه ، ولم يوجد سواه منذ ذلك الحيز حتى اليوم .." .

يستنتج من الفيدا ، أن الهنود كانوا يعيشون في هذه الفترة على الزراعة ، ورعي المواشي، ولهم إله خاص للأرض المحروثة ، ويستخدمون البقرة دون أن ينزلوها من أنفسهم منزلة التقديس .

وأهم أسس الحيلة الاجتماعية في الهند نظام الطبقات ، لقد انقسم المجتمع الهندي إلى خمس طبقات :

1- الكهنة أو البراهمة ، الذين شكلوا طبقة ممتازة ، سيطرت على الحياة الفكرية والروحية في الهند سيطرة هدّدت كل تفكير وكل تغيير بالمقاومة المميتة ، ويعتقدون أنهم خلقوا من رأس براهما ، أو من فمه .

2- المحاربون وهم الذين خلقوا من كتفي براهما ويديه .

3- المزارعون والتجار وأصحاب الحرف وهم الذين خلقوا من فخذي براهما .

4- الخدم وهم الذين خلقوا من قدمي براهما وهم من نسل السكان الأصليين .

5- المنبوذون وهؤلاء لا ينتسبون إلى طبقة معينة، كما أنهم قرابة أربعين درجة ، ولهم نوع خاص من اللباس .

ولايمكن التقدّم من طبقة إلى أخرى، كما أنه لا يمكن التزاوج بين طبقتين إلا بين الأولى والثانية ، والقانون هو العرف ، ويستشير فيه الملك أحد علماء الدين .

. الديانات:

لقد وجد الآريون في الهند ديانة ؛ هي عبادة روحانية طوطمية لأرواح كثيرة ، تسكن الصخور والحيوان و الأشجار ومجاري المياه والجبال و النجوم .. وللديانة الفيدية مذابح قرابين ، وليس لها معابد أو أصنام .

وأما ديانة الآريين فإنها كسائر ديانات الهندو أوربية ، قائمة على عبادة قوى الطبيعة كالسماء والقمر والشمس والأرض والهواء والعاصفة .. فآغني (Agni) إله النار الذي يمثل الشمس في السماء ، والنار المقدسة في الأرض ، ولما كثر عدد الآلهة ، نشأت مشكلة هي : أي هؤلاء خلق العالم ؟

وتحتوي الفيدا على أفكار وتعاليم نبيلة تتعلق بالاستقامة والنّقاوة .

ولما كان وصول الآريين إلى الهند عن طريق آسيا الصغرى وهضبة إيران ، فلابد أنهم تأثروا بحضارة البلاد التي مروا فيها ، ومنها بلاد مابين النهرين .

حضارة عصر البطولة والديانة البراهمية (1000–500ق م):

مصدر المعلومات عن هذه الفترة ملحمتان تسميان : المهابهراتا(Mahabharata) ، أو قصة أسرة بهراتا ، و الرامايانا(Ramayana) أو تاريخ راما . وظهر في هذا العصر ثالوث مقدس ، مؤلف من براهما الخالق، وشيوا (Sheva) المهلك ، وفشنو (Vishnu) الحافظ ، والهندوسيون اليوم يتبعون إما شيوا أو فشنو .

والتعليم في هذا العصر كان في طبقة الكهنة أو البراهمة ، وكان شفهيا حتى لاتصل المعرفة إذا كتبت إلى الطبقات الدنيا .

وظهرت في هذه الفترة عقيدة التقمص ، بمعنى أن الروح تولد مرات متعاقبة .

وحصل رد فعل ضد البراهمة ، لأن الكهنة أصبحوا أقوياء ، وتعقدت الطقوس كثيرا ، فقامت ثورة ضد الكهنة البراهميين ، وظهرت (الجاينيّة) ، ومؤسسها مهافيرا (Mahâvîra) . 550 / 477 ق م . ، الذي كان أميرا وترك الإمارة ، وراح يعذب نفسه اثنتي عشرة سنة ، حتى جاءه الهدى دون مساعدة الكهنة ، ومن هنا جاء لقب الجينا (Jina) أي الغالب ، وأسس رهبنة كان فيها 14000 من أتباعه عندما توفي . والطريق المؤدية إلى الخلاص في رأي الجاينيين ، هي توبة تقشفية ، وامتناع عن إيذاء أي كائن حي .

كما ظهرت . ضمن رد الفعل ضد البراهمة . البوذية ، ومؤسسها غوماتاسيدهانا (483/564 ق م) ، الذي دعي بوذا أي المستنير أو الذي اهتدى ، وكان ابن أمير منطقة على حدود نيبال ، فتنكر لسلطة الفيدا والكهنة البراهمة ، وقرر قواعد خُلقية خمسا ، وهي بمثابة الوصايا :

1- لا يقتلن أحد كائنا حيا .

2- لا يأخذن أحد ما لم يعطه .

3- لا يقولن أحد كذبا .

4- لا يشربن أحد مسكرا .

5- لا يقيمن أحد على دنس .

ومما يميز الجاينية والبوذية أنهما تكلمتا بلغة الشعب (Prokrit) ، وليس بالسنسكريتية لغة الكهان ، ودخل في العقيدتين جماعة من مختلف الطبقات ومن الجنسين ، وتدخل الكارما عنصرا هاما في تعاليم الطرفين ، وهي قضية الإرادة، فإذا عاش الإنسان وفكر بصورة صحيحة ، يتخلص من الكارما ، ويصل إلى ما يسمى بالنيرفانا (Nirvana) ، بمعنى أنه لا يعود يولد مرة ثانية ، والوصول إلى ذلك يكون باتباع خطة النقاوة و الصفاء في الفكر والقول والعمل ، وتجنب القتل والسرقة والزنى ، والابتعاد عن الكذب والطمع واللذات والرغبات .

ويهتم الطرفان بالسلوك القويم وبالمعرفة الصحيحة ، وينظران إلى العالم على أنه شر ، ويميلان إلى الرهبنة . والجاينية تشجع التقشف الكئيب ، والزهد الجاد المتشائم ، وإماتة النفس تماما ، بينما البوذية أكثر اعتدالا . وبقيت الجاينية في الهند ، بينما انتشرت البوذية في بلاد الشرق الأقصى ، وعدّ مؤسسا هاتين الفكرتين إلهين بعد مدّة من وفاتهما .

ويعدّ آزوكا (Asoka) . 232/272 ق م . ناشر البوذية ، حيث أرسل بعثات التبشير إلى التبت والصين و منغولية و اليابان و سيلان و بورمة و سيام .. وبجهوده أصبحت تلك البلاد بوذية .

علوم الهند القديمة :

عرفت الهند الطب و الرياضيات ، وازدهر الفلك بين القرنين الثالث والرابع الميلاديين وتأثر بمدرسة الإسكندرية . وتحتوي كتب السدهانتا الهندية أهم عناصر الفلك الهندي،

وسدهانتا (Siddhanta) تعني النتيجة الثابتة ، وعرفه العرب باسم (السند هند) ، وهو فلك متأثر بالفلك البابلي .

ويقول سارتون (Sarton) : ابتكر الهنود ـ على الأغلب ـ الأرقام التسعة و النظام العشري.

وللهنود فضل على المثلثات ، فهم الذين استعملوا نصف الوتر ، وحصلوا على جدول من الجيوب ، فكلمة جيا (Jya) أو (Jiva) السنسكريتية أصبحت في العربية جيب .

وازدهرت الفلسفة في الحضارة الهندية ، وآلت الفلسفة البرهمية إلى ستة من المذاهب الرئيسية المعترفة بأصول الفيدا ، وكلها مؤمنة بأن الفيدا قد هبط بها الوحي، وأن الغاية من المعرفة ومن الفلسفة ليست هي السيطرة على العالم بقدر ما هي طرق الخلاص منه ، وأن هدف الفكر هو التماس الحرية من الألم المصاحب لخيبة الشهوات في أن تجد إشباعها ، وذلك التحرر من الشهوات نفسها .

يذكر(ول ديورانت) أن الكهنة في الهند استطاعوا في قياس مذابح القرابين و بنائها ، أن يصوغوا النظرية الفيثاغورسية التي مؤداها : أن المربع المنشأ على وتر المثلث القائم الزاوية ، يساوي مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين ، قبل ميلاد المسيح ببضع مئات من السنين ، وكذلك استطاع (أريابهاتا) وقد يكون متأثرا باليونان في ذلك ، أن يحسب مساحة المثلث و المعين والدائرة .

وهذا منهج كثير من علماء الغرب و مؤرخيه ؛ بجعل اليونان معجزة الحضارات القديمة ... وهذا خطأ جسيم ...إن الحضارة اليونانية اقتبست الكثير من حضارات الشرق : المصرية والبابلية والفينيقية ..كما سنوضحه في محاضرات قادمة .

المراجع

هذه مراجع يمكن العودة إليها للاستزادة منها، وإثراء هذه المحاضرات.

- الإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي
- التفسير القرآني للقرآن، الدكتورعبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة.
- التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى، 1410هـ.
- الحضارة الإسلامية– أحمد عبد الرحيم السايح– الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة – الطبعة العاشرة – العدد الثالث– ذو الحجة 1397هـ – نوفمبر تشرين ثاني 1977م.
- الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم – عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي –دار القلم– دمشق– الطبعة الأولى: 1418هـ–1998م.
- الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل، جمع وإعداد الباحث علي بن نايف الشحود
- العلاقات الدولية في الإسلام – محمد أبو زهرة – – الدار القومية – القاهرة – 1964هـ
- المدخل إلى تاريخ الحضارة: جورج حدّاد، مطبعة الجامعة السوريّة، 1958م
- المقدمّة، العلاّمة عبد الرحمن بن محمّد بن خلدون، دار الجيل، بيروت، دون تاريخ
- الموسوعة العربية العالمية.
- تاريخ الحضارات العامّ: إشراف موريس كروزيه، نقله إلى العربيّة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1964م.
- تاريخ الحضارة الكتاب: ويل دورانت، الرابع (عصر الايمان، الفصل الثاني: الحضارة الاسلامية، طهران، انتشارات اقبال، 1343هـ.

- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: 1420 هـ، 2000م.
- حضارة العرب–غوستاف لوبون– تحقيق:عادل زعيتر– الهيئة المصرية العامة للكتاب– 1969
- حلية طالب العلم، بكر أبو زيد، مؤسسة قرطبة، ط3، 1409هـ.
- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة: 1988م
- شجرة الحضارة: رالف لنتون، ترجمة أحمد فخري، مكتبة الإنجلومصريّة.
- شمس العرب تسطع على الغرب – زيغريد هونكه– دار الجيل بيروت– الطبعة الاولى 1964
- صدام الحضارات: صامويل هانتنغتون، إصدار مجلة شؤون الأوسط، مركز الدراسات الإستراتيجيّة والبحوث والتوثيق، بيروت، 1995م.
- خلاصة تاريخ العرب:سيديو، ترجمة علي باشا مبارك، ط 1 مطبعة محمد أفندي، مصر، 1309هـ
- مفهوم الحرية في الإسلام–فرانز روزانتال–تحقيق رضوان السيد– معن زيادة–دار المدار الإسلامي– 2007.
- مفهوم العدل في الإسلام: مجيد خدوري، دراسات في الفكر الديني، دمشق، 1998م.
- مقدمة في تاريخ العلم– جورج سارتون– ترجمة مجموعة من المترجمين– 1991– دار المعارف بيروت.
- الظاهرة القرآنية ، مالك بن نبي
- شروط النهضة ، مالك بن نبي